وحـى اللـه

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

[الإسراء: ٨٨]

وحى الله

مع كل نبى تأتى معجزة تؤيده، فيراها الناس فيعرفون أن هذه المعجزة ليست فى طاقة بشر، وبالتالى فهى تدل على صدق صاحب الرسالة.

ومن هنا يتعين عليهم الإيمان بهذه الرسالة أو يلقون الجزاء الذى يتوعد به الله الكافرين.

كانت معجزة إبراهيم عليه السلام أن النار التى أُلقى فيها تحولت بالنسبة له بردًا وسلامًا فلم يتعرض لحرق، ولم يصبه أذى، فقد فقدت النار قدرتها على الإحراق، وهذه ضد طبائع الأشياء، ولا يمكن لبشر مهما تكن قدراته أن يحّول النار إلى برد وسلام.

وكانت معجزة موسى عليه السلام هو أن يلقى بعصاه على الأرض فإذا بها تتحول إلى أفعى حقيقية تبتلع ما يتبعه السحرة من إفك عندما يوهمون الناس بأنهم يحولون الحبال إلى أفاعى.

وكانت معجزته الثانية أن يضع يده فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء.

وكانت معجزة عيسى عليه السلام إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله.

وكان لكل نبى معجزته.

ولكن هذه المعجزة مرهونة بزمانها وبمن رآها.

وجاءت معجزة النبى الخاتم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام أخلد هذه المعجزات وأبقاها.. إنها معجزة لكل العصور.. إنه القرآن الكريم.

فالقرآن الكريم بإعجازه وبيانه الذى تحدى الله سبحانه وتعالى به العرب وهم أهل بلاغة وفصاحة أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، قرآن يتعبد به ويتلى فى كل العصور.. وهو فى كل عصر مبهر معجز لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله.. وهو مع كل ما جاء به من أحاديث حول الكون وما فيه من آيات الله.. لم يصطدم بحقيقة علمية واحدة.. بل إن كل الحقائق العلمية ـ وليست النظريات ـ تتفق مع ما تحدث به القرآن الكريم.. وهو يتحدث عما فى الكون.. كتاب الله المنظور من آيات تدل على عظمة الخالق العظيم.. وعندما تحدث عن النجوم والمسافات الشاسعة بينها مثلا.. أصبحت حقائق علمية، وإن كانت لا تخطر على بال من عاصر عصر النبوة.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة: ٧٥].

وحديث القرآن الكريم عن عسل النحل وكيف أنه شفاء للناس وهذا لم يتعارض أيضًا مع حقائق العلم الحديث.

والرياح وحملها لحبوب اللقاح بين الزهور.. وما أكثر ما كشف عنه القرآن من القرائن التى تحكم المادة، ولم تصطدم أبدًا باكتشافات العلم الحديث.

وفى كل عصر من العصور..ومع كل اكتشافات جديدة يرى أهل هذا العصر الجديد المعجز فى آيات الكتاب المبين.

ورغم أن القرآن الكريم ليس كتاب علم يتحدث عن نظريات علمية، وأنه كتاب تشريع وعبادات وتعريف بأمور الدين، وما ينبغى أن يعرفه المسلم ويلم به عن نفسه وعن علاقاته بمجتمعه.. والقوانين التى ينبغى أن تسود المجتمع الإنسانى حتى يكون مجتمعًا على أعلى مستوى من الرقى الروحى والمادى.. بتوحيده لله وأداء ما فرض عليه وتركه ما نهى عنه.. إلا أن القرآن الكريم هو دستور المؤمن.. الذى من خلاله يعرف ما ينبغى أن يعرفه من أمور دينه ودنياه، بجانب أنه يتعبد بتلاوته.

ويصف الله عز وجل كتابه بقوله: ﴿**قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ**﴾ [المائدة: ١٥].

وقد تحدى الله سبحانه وتعالى الإنس والجن أن يأتوا بشىء مثله ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾**﴾ [الإسراء: ٨٨].

وإذا كانت كل معجزة من معجزات الأنبياء السابقين مرتهنة

بعصرها - بعكس القرآن الكريم - وإذا كانت الكتب السابقة على القرآن الكريم كالتوراة والإنجيل قد حُرِّفت، فإن الله سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظ القرآن الكريم.. فنحن نقرأ القرآن الكريم كما أنزل على رسول الله ﷺ.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

والله سبحانه وتعالى يسمى القرآن (روحًا).. وقد أنزله على قلب الرسول الكريم من خلال جبريل عليه السلام:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

والوحى له أكثر من معنى يوضحه الدكتور الحسينى هاشم.. يبدأ بالبيان للمعنى العام للوحى، ثم يصعد فى سلم الارتقاء ليتحدث عن الوحى القرآنى فيقول:

ومن المعلوم أن المعنى العام بأقسامه العديدة إنما يوجد فى المعنى اللغوى.

والوحى يطلق فى اللغة على مطلق الإعلام غير مقيد ذلك الإعلام بأحد معين يلقيه ولا بمستقبل معين يلقى عليه. كما أنه غير مقيد ذلك الإعلام بطريق معين من طرق المعرفة. كالرمز أو التعريض أو الإلهام أو الكتابة أو الكلام.

ولا يلزم أن يكون ذلك على وجه السرعة أو الخفاء وإن قيل إن الأصل فيه السرعة والخفاء، كما أنه غير مقيد بلون معين من المعرفة من الخير أو الشر، بل يشمل كل ذلك وما من شأنه أن يكون طريقًا للإعلام حتى يكون المعنى اللغوى جامعًا لكل ما تقدم.

* فيكون الوحى من الله سبحانه وتعالى إلى غير العاقل بمعنى الالهام الغريزى، قال الله تعالى:

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [النحل: ٦٨].

* ويكون الوحى من الله سبحانه وتعالى إلى البشر على سبيل الإلهام الفطرى الواضح كقوله تعالى:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [القصص: ٧]

* ويكون من الله سبحانه وتعالى إلى الملائكة بطريقة تتناسب مع ملائكيتهم كقوله تعالى:

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأنفال: ١٢].

* ويكون الوحى من الشياطين إلى أوليائهم الذين هم بعيدون عن

الخير. قال تعالى:

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

* ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا عن الإنس والجن كما قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

* ويكون الوحى بإشارة وحيه (أى سريعة). وقد حمل على ذلك قوله تعالى فى زكريا:

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: ١١].

أى أشار.

ويكون بالإيماء بالجوارح، ومنه قال الشاعر:

نظرت إليها نظرة فتحيرت ودقائق فكرى فى بديع صفاتها
فأوحى إليها الطرف أنى أحبها فأثر ذاك الوحى فى وجناتها

والمعنى اللغوى للوحى يتسع لكل هذه المعانى، وهذا التعميم سمة المعنى اللغوى، ويتفق مع التعريف فى القاموس ولسان العرب كما قالوا وما جاء فى الفتح لابن حجر:

(الوحى الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفى وكل ما ألقيته على غيرك).

وإذا كان بعض الكُتّاب قد يُعد الإعلام بأنه الخفى السريع فلأن الأصل فيه ذلك، ولكنه أصبح يطلق على مطلق الإعلام، وإلا فالكتابة والكتاب مثلاً لا يتحقق فيهما ذلك.. وأى تحديد لا يجعله يستوعب كل الصور المذكورة.. فالأولى التعميم فى المعنى اللغوى حتى يتسع لكل هذه المعانى وإن اختلفت كيفياتها ومصادرها وأهدافها، فلا عليك أن تسمى كل ذلك وحيا لغويا، ولكنه ليس بالوحى الشرعى أو الحقيقة الشرعية للوحى أو الوحى القرآنى. وهدفنا من هذا العرض أن نتجنب مسألة شائكة وهى الخلط بين المعنى اللغوى والحقيقة الشرعية للوحى، وفى ضوء ذلك تشرق لنا قسمات الوحى القرآنى سافرة المحيا.

***

الوحـى الشرعـى

ويقول الدكتور الحسينى هاشم بعد تحليل معنى الوحى وصولاً إلى الحديث عن الوحى الشرعى:

الوحى فى حقيقته الشرعية (هو إعلام من الله إلى أنبيائه) فلا يكون مصدره إلا من الله العلى العظيم، ولا يتلقاه إلا نبى لرب العالمين.. فهو متميز إرسالاً واستقبالاً وله صفته الخاصة.. وله صور بيّنها القرآن الكريم، وحدد فى النهاية الجلية التى اختارها لوحى كتابه قال جل شأنه:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشوري: ٥١ – ٥٣].

* * *

وواضح من قراءة ما جاء على لسان النبى عليه الصلاة والسلام

والمفسرين أن الوحى كان يأتى على عدة صور:

* فقد يكون بإلقائه فى قلب الرسول - عليه الصلاة والسلام- ويتيقن تمامًا أن ما أوحى إليه من عند الله.

* أو عن طريق جبريل عليه السلام الذى يسميه القرآن الكريم (الروح الأمين).

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

وفى بعض الأحيان كان ينزل جبريل على الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام على شكل بشر مثل ما روى أنه كان ينزل على شكل (دحية الكلبى).

وقد وصف النبى عليه الصلاة والسلام فى أحاديث كثيرة كيف كان ينزل عليه الوحى، وما كان ينتابه فى تلك اللحظات.

سئل الرسول: كيف يأتيك الوحى؟

قال:

«أحيانًا يأتينى مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علىَّ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال.

وأحيانًا يتمثل لى الملك رجلا يكلمنى، فأعى ما يقول».

قالت عائشة رضى الله عنها:

رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد وإن جبينه ليتفصد عرقًا.

ومما يروى عن النبى هذه الحادثة الذى تمثل فيها جبريل. أنه جاء على هيئة إنسان شديد بياض الثياب، شديد بياض الوجه.. وأخذ يسأل النبى والنبى يجيب.. لقد جاء ليعلمّ الناس أمور دينهم فيقول الحديث مرفوعًا إلى أبى هريرة:

«كان النبى ﷺ بارزا يوما للناس فأتاه جبريل:

فقال: ما الإيمان؟

قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث.

قال: ما الإسلام؟

قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان.

قال: ما الإحسان؟

قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

قال: متى الساعة؟

قال: ما المسئول بأعلم من السائل وسأخبرك عن أشراطها:

إذا ولدت الأمة ربتها، وإذا تطاول رعاة الإبل والبهم فى البنيان، فى خمسٍ لا يعلمهن إلا الله. ثم تلا النبى ﷺ:

﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤].

ثم أدبر فقال الرسول ﷺ: ردوه فلم يروا شيئًا..

فقال: هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم».

وقد أعجبنى هذا التعريف الجامع المانع حول القرآن الكريم للدكتور محمد عبد المنعم القيعى فى كتابه (عقيدة المسلمين والعقائد الباطلة).. فيرى أن القرآن المقروء المكتوب فى المصاحف المبتدأ بسورة الفاتحة المنتهى بسورة الناس: كلام الله عز وجل ووحيه أنزله على قلب نبيه محمد ﷺ.

من كفر بحرف منه فهو كافر قال تعالى:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

وقال تعالى:

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤].

وقال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧].

وكل الصفات التى وصُف بها القرآن ترجع إلى كونه قرآنًا أى جامعًا على الحق.

وفرقانًا: أى مفرقًا بين الحق والباطل.

وقد وصف القرآن بالكلام، لأنه من أجل النعم.

ووصف بالعظمة، نظرًا لحقيقته الذاتية.

ووصف بالحكمة؛ لأن العبد يترقى بالقرآن فيتجلى له الحق. وهذا القرآن اسم للفظه ومعناه.

وكل ما فيه من خبر عن نبى من الأنبياء، أو رسول أو عذاب أو نعيم أو غير ذلك فهو على حق على ظاهره لا رمز فى شىء منه.

قال تعالى:

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزمر: ٢٨].

وقال:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

فالقرآن الكريم جامع للأصول، ومبين لبعض الفروع. وفى السنة النبوية بيان لباقى الفروع كما قال لنبيه:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

فالقرآن أصل الدين، والمصدر الأول له، وتأتى بعد ذلك السنة، ثم الإجماع، وما عدا هذه المصادر يستأنس بها، كالقياس، والاستصحاب، والمصالح المرسلة، وأقوال الصحابة وأعمالهم، والعرف، وغير ذلك مما يرتضيه المسلمون المتفقون على ما يرضونه، ولا سر فى الدين عند أحد استؤثر به عنده، وادعاء هذا زور وبهتان، وتقول بغير علم، قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

مع القرآن الكريم

وهكذا نعرف أن معجزة الإسلام الكبرى لكل العصور هذا القرآن الكريم الذى نزل منجمًا على آخر رسل الله عليه الصلاة والسلام على مدى ثلاثة وعشرين عامًا.. حتى يمكن الناس من استيعاب ما جاء به القرآن الكريم. وحتى يصل إلى قلوبهم وعقولهم من خلال قراءتهم له وسماعه من الرسول والصحابة الذين كانوا يكتبونه ويحفظونه من أمثال علىّ وعثمان وزيد بن ثابت وأبىٍّ بن كعب.

كما أن نصوص القرآن قد حفظها الله تعالى، فقد رتب القرآن الكريم بوحى من الله تعالى:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٣٢].

ويقول جل شأنه أيضا:

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ ﴾ [القيامة: ١٧].

لقد ظل الرسول عليه الصلاة والسلام منذ أن جاءه وحى السماء، وهو يعمل على نشر الإسلام على ضوء الوحى.. وجاهد فى ذلك جهادًا يفوق طاقة البشر.. صبر على جهل الكفار وعبثهم، وصبر

وهو يبلغ الناس تعاليم لم يألفوها فى جاهليتهم، فلم تكن عقولهم تستوعب هذه التعاليم الإسلامية التى تجعل الناس جميعًا أمام الله سواء.. لا فرق بين إنسان وآخر إلا بالتقوى.. لا المال.. ولا الجاه.. ولا النسب ولا الحسب يرفع درجة إنسان على آخر لا يملك المال ولا الجاه ولا الحسب والنسب.. إنما يقياس إيمان الإنسان بالقرب أو البعد من الله.. القريب من الله هو التقى والبعيد عنه هو الذى لا يعرف حدود ما أحل الله وما حرم، ويتبع الحرام ويتجنب الحلال.

ولم تكن عقولهم التى عششت فيها روح القبلية وتراكمت عليها عادات وتقاليد الجاهلية بقادرة على أن تستوعب أن الناس سواسية، وأن العدل لابد أن يسود وأن المظالم من الحرمات، وأن الزنا وقتل النفس يخضع للحدود التى شرعها الله.

لم يستوعبوا كل هذه الأمور إلا بعد حروب طاحنة بينهم وبين المسلمين، وعندما انتهى الصراع وحسم لصالح المسلمين، أصبحت شبه الجزيرة العربية المفككة المتخاصمة المتناحرة.. يجمعها دين واحد، وعقيدة واحدة، فإذا بتلك القبائل المتهالكة التى تخشى من القوى العظمى التى أخضعت العالم لهيمنتها كالفرس والروم من أقوى المجتمعات.

وعندما توحد هؤلاء العرب وجمعتهم عقيدة الإسلام أصبح لهم حضارة انبثقت عن هذا الدين الجديد الذى جعل لهم دستورًا وقانونًا متمثلاً بما جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية، وهذب من عاداتهم

وتقاليدهم.. وأعطى لهم المثل العليا التى كان عليهم أن يحققوها، وغرس فيهم قيم الإسلام ومبادئه.

وعندما تحقق كل ذلك أصبحوا قوة عظمى استطاعوا أن يتغلبوا على الفرس والروم فى زمن قصير.. وسادت الحضارة الإسلامية، وغزت القلوب والعقول، وانتشرت بسرعة البرق فيما بين الصين والأندلس، ووصل المد الإسلامى حتى شواطئ الأطلنطى.

وإذا كان القرآن الكريم وهو دستور الإسلام الخالد كان يحفظه البعض فى صدره، فقد خشى عمر بن الخطاب رضى الله عنه - بعد انتقال أعظم رسل الله إلى الرفيق الأعلى - على ضياع القرآن الكريم، وخاصة عندما وجد أن عددًا كبيرًا من حفاظه قد استشهد فى حروب الردة فى يوم اليمامة فى عهد الخليفة الأول أبى بكر الصديق، فقد أشار عَلَى أبى بكر بضرورة جمع القرآن الكريم وقال له: إن أصحاب رسول الله يتهافتون فى المعارك وإنى أخشى أن تأتى عليهم وهم حملة القرآن فيضيع وينسى، فلو جمعته.

وظل عمر يحدث الصدِّيق فى هذا الأمر حتى شرح الله صدره لذلك واقتنع بضرورة جمع القرآن، فعهد إلى زيد بن ثابت ـ أحد كتاب الوحى ـ بجمعه، وقام الرجل بمهمته خير قيام، حيث جمع القرآن المكتوب من العسب، واستعان بحفظته من الصحابة الأبرار أمثال عثمان وعلى وعبد الله بن مسعود وأبى بن كعب، وطلحة، وحذيفة وأبى هريرة وأبى الدرداء، وأبى موسى الأشعرى، وقد أمره

الصديق أن يستشهد بشاهدين على صحة ما يكتب، بأنهما شهدا الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يملى كلام الله الذى سوف يدونه ثابت.

وكان هذا من أعظم أعمال الصديق، فقد احتفظ بالقرآن الكريم المجموع كاملاً فى بيته، ثم احتفظ به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ثم احتفظت به بعد ذلك ابنته حفصة أم المؤمنين.

وعندما أخذت الجيوش الإسلامية تزحف فى كل اتجاه ناشرة دين الإسلام، وتوغلت الجيوش الإسلامية فى أرمينية وأذربيجان.. وكان الصحابى الجليل حذيفة بن اليمان فى هذه الحملة، فلاحظ اختلاف الناس فى بعض أداء القرآن الكريم، ففزع من ذلك وخشى على قراءة القرآن بأداء يبعده عن معانيه، وليس هناك مصحف يرجع إليه، فالمصحف الذى جمعه الصديق عنده فى المدينة.. فذهب حذيفة إلى عثمان قائلا:

ـ إن الناس قد اختلفوا فى القرآن حتى إنى لأخشى أن يصيبهم مثل ما أصاب اليهود والنصارى من الاختلاف.

وكان من أعظم إنجازات عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه عندما سمع ذلك صمم أن يكتب القرآن الكريم بلسان قريش، وأن يكون هذا المصحف إمامًا للمسلمين فى كل أقطار العالم الإسلامى.. فقد أخذ المصحف الذى جمعه الصديق من حفصة لنسخه.

وأمر جماعة من خيرة الصحابة بكتابة المصحف الشريف. . ومنهم زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وقال عن عبد الله بن الزبير وعبد الرحمن وسعيد، إن حدث اختلاف بينهم وبين زيد فى كتابة شىء من القرآن الكريم، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم.

وعندما تمت كتابة القرآن الكريم، أعاد إلى أم المؤمنين حفصة المصحف الذى جمعه الصديق، ثم أرسل مصحفه إلى الأقطار الإسلامية حتى يقرأه الناس على حَرْفِها. . وأمر بحرق ما سواها. . لقد أرسل مصحفه إلى مكة والكوفة والبصرة ودمشق وباقى الأقطار.

ومع أن القُراء التزموا بالقراءة كما جاء فى مصحف عثمان رضى الله عنه، إلا أنه حدث بعض الفروق فى القراءة داخل ذلك الحرف. . وقد أجمع المسلمون على سبع منها وهى قراءات ابن عامر وابن كثير وعاصم وأبى عمرو بن العلاء وحمزة ونافع والكسائى.

* * *

وحول سور القرآن وتفسيره فى العهد الأول يحدثنا الدكتور شوقى ضيف وهو يتحدث عن تاريخ الأدب العربى:

إن عدد سور القرآن أربع عشرة ومائة تختلف طولا وقصرًا، وتتضمن السورة طائفة من الآيات، وهى تبلغ عدا البسملة أربع عشرة ومائتين وستة آلاف (٦٢١٤ آية) وقد قسمت تسهيلا لتلاوته إلى

ثلاثين جزءًا. وكل جزء ينقسم إلى حزبين، وكل حزب ينقسم إلى أربعة أرباع. وهى أقسام لتيسير التلاوة والحفظ، وقد نزل كثير من السور بمكة، ومن ثم كانت السور إما مكية وإما مدنية نسبة إلى المدينة، ومعروف أن رسول الله ﷺ ظل بمكة داعيًا إلى الدين الحنيف ثلاثة عشر عامًا، انتقل بعدها إلى المدينة، حيث ظل بها عشر سنوات إلى أن لبَّى نداء ربه، على أن بعض السور تمتزج فيها آيات مكية بأخرى مدنية، بتوفيق من الله جل جلاله، وجميع السور ما عدا فاتحة الكتاب حديث من الله إلى رسوله وأتباعه وخصومه.

والسور المدنية بصفة عامة طويلة، وهى لا تختلف عن السور المكية من حيث الطول والقصر فحسب، بل تختلف أيضًا فى المعانى التى تدور عليها.

فالسور المكية تخوض غالبًا فى الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده ونبذ عبادة الأوثان والأصنام والإيمان بالبعث والحساب.. فمن عمل صالحًا فله الجنة والنعيم، ومن عمل سيئًا فله النار والجحيم.

وتتخلل ذلك الموعظة الحسنة والقصص عن الأمم الماضية والقرون الخالية والحث على التمسك بأهداب الفضيلة ودعوة العقل إلى التدبر فى خلق السموات والأرض، فإن من يتدبر فى هذا الخلق يعرف أنه لابد له من صانع أحكم نظامه وأقام ميزانه.

أما السور المدينة فيكثر فيها القول فى العمل الصالح الذى ينبغى

على المسلم أن يقوم به، ومن ثم يكثر فيها التشريع الدينى، وكذلك التشريع الاجتماعى بكل ما يتصل به من نظم الأسرة، كالميراث والزواج والطلاق، وبر الوالدين ونظم المجتمع، كالبيع والشراء والرهن والمداينة وقسمة الغنائم والزكاة وتحرير الرقيق، مع بيان بعض العقوبات ووجوه التحليل والتحريم، وفى تضاعيف ذلك تُذْكر العبادات وتتردد الدعوة إلى التوحيد والبعث والحساب والثواب والعذاب والإيمان بالكتب السماوية.

ويقول الدكتور شوقى ضيف أيضًا:

ودعت الحاجة منذ نزول القرآن على النبى ﷺ إلى تفسير بعض آياته، كان الصحابة يرجعون إليه ليفسر لهم بعض ما يتوقفون فيه، وكان هو أحيانًا يبادر فيبين لهم بعض الآيات، ويقول جلَّ ذكره:

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤].

ويقول:

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٧].

وتدل الآية الأولى دلالة واضحة على أن الرسول كان يبين للناس الأحكام القرآنية أمرًا ونهيًا، فهو المفسر الأول لأوامر الله ونواهيه.

وتدل الآية الثانية على أن فى القرآن آيات تحتاج إلى تأويل، وهى تصرح بذلك فى وضوح.

وفى مقدمة تفسير الطبرى عن ابن مسعود:

(كان الرجل منا إذا تعلَّم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن).

ويتضح من نص الآية الكريمة الثانية أنه يُسمح لأولى العلم بالدين وأصوله من الصحابة أن يفسروا للناس آى الذكر الحكيم، وهم الذى يسميهم الله عز وجل باسم الراسخين فى العلم.

ويحدثنا السيوطى فى كتابه (الاتقان) أنه استطاع أن يجمع أكثر من عشرة آلاف حديث من تفاسير النبى ﷺ والصحابة، وأن يدونها فى كتاب له بعنوان (ترجمان القرآن).. وقد اختصره فى كتاب طبع فى ستة أجزاء سماه (الدر المنثور فى التفسير بالمأثور)، ويقول أنه اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة هم الخلفاء الراشدون وابن مسعود، وأبىٌّ بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعرى وعبدالله بن الزبير وابن عباس.

والقرآن الكريم يتعبد بتلاوته، وفيه أحكام الحلال والحرام، وبما أنه قد جُمع بلهجة قريش، فقد سادت هذه اللهجة وأصبحت هى أساس اللغة الفصحى التى يرددها الناس عبر القرون وفى كل بلاد الإسلام.. وبذلك استطاع القرآن الكريم أن يوحد اللغة الفصحى،

ويحافظ عليها فى كل العصور، فلم تندثر هذه اللغة كما اندثرت من قبل اللغة اللاتينية واليونانية القديمة، وغيرها من لغات العالم، بل ظلت اللغة العربية بفضل القرآن الكريم لغة جادة قوية، تستوعب كل العلوم وتثرى الحياة الأدبية والفنية والثقافية، وأصبحت لها قدرة هائلة على امتصاص كل ما فى الحضارات من أفكار، بل أصبح لدى العربية القدرة على تعريب الألفاظ الأجنبية دون أن تفقد العربية رصيدها اللغوى الخالد الممتاز الذى حفظه القرآن فى كل عصور ولكل العصور.

واستطاع القرآن الكريم الذى رفع راية الإسلام والعربية من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلنطى أن يجعل المسلمين سادة الدنيا يوم تمسكوا بتعاليمه ومبادئه، فقد حثهم على قراءة كتاب الكون بالدرجة نفسها الذى يجب أن يتبصر فيها المسلم بكتاب الله، فانتشر العلم، وبزغت شمس الحضارة.. وأصبحت العرب الرحّل قادة الدنيا فى العلوم، وأصبحت حضاراتهم وفكرهم الرفيع مطمحًا، ونقلوا الفلسفة اليونانية وشرحوها وأضافوا إليها، وعنهم أخذتها أوربا، فكان العرب بمثابة النور الذى أضاء أوربا فى عصورها المظلمة.

ومن هنا لم يكن غريبًا أن يقول الأستاذ العقاد فى كتابه عن الفلسفة القرآنية:

(فى هذا العصر الذى تتصارع فيه معانى الحياة بين الإيمان والتعطيل، وبين الروح والمادة، وبين الأمل والقنوط، تلوذ الجماعات

الإسلامية بعقيدتها المثلى ولا تخطئ الملاذ، لأنها عقيدة تعطيها كل ما يعطيه الدين من خير، ولا تحرمها شيئًا من خيرات العلم والحضارة).

وما أعظم كنوز القرآن الكريم الذى أوحى به الله سبحانه وتعالى عن النبى الخاتم الذى جاء بالرسالة الخالدة.

وقد كان الرسول العظيم يحب أن يسمع القرآن من غيره فقد قال مرة لابن مسعود:

«اقرأ علىَّ سورة من القرآن».

فقال ابن مسعود:

ـ أأقرأ عليك يا رسول الله وعليك أنزل؟

قال النبى ﷺ:

ـ «إنى أحب أن أسمعه من غيرى».

فقرأ ابن مسعود (سورة النساء) حتى إذا بلغ قوله تعالى:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١].

قال النبى ﷺ: «أمسك».

وعندما نظر ابن مسعود إلى وجه النبى رآه يزرف الدموع.

وما أعظم حديث الرسول عن القرآن الكريم:

«فيه نبأ ما قبلكم.. وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو

الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، والصراط المستقيم، وهو الذى لا تزيع به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه. . من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم».

***